بين عصر المبادئ وعصر الأشخاص وعصر الأشياء

(خطبة الجمعة للشّيخ عبد الحق شطّاب بمسجد الشّيخ أحمد حفيظ رحمه الله

يوم 2 محرّم 1434هـ الموافق لـ 16 نوفمبر 2012م)

الخطبة الأولى:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفُسِنا ومن سيِّئات أعمالِنا، من يهدِه الله فهو المُهتد ومن يُضلل فلن تجِد له وليًّا مرشدًا،

أشهد أن لا إله إلاّ الله وحدَه لا شريك له وأشهد أنّ مُحمّدا عبدُه ورسوله،

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿01﴾ "سورة النّساء.

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿102﴾ "سورة آل عمران.

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿70﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿71﴾ "سورة الأحزاب.

ألا وإنّ أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمّدٍ – صلّى الله عليه وآله وسلّم –،

وشرّ الأمور مُحدثاتها وكلّ محدثة بدعة وكلّ بدعة ضلالة أعاذنا الله من الزّيغ والضّلال،

معاشر الإخوة الكرام، في هذه الجمعة المباركة، نتناول موضوع :

بين عصر المبادئ وعصر الأشخاص وعصر الأشياء

إخوتي الكرام،

لقد مرّت الأمّة على عصر المبادئ، ثمّ انتقلت إلى عصر الأشخاص، وتمرّ في كثيرٍ من الأحيان إلى عصر الأشياء.

وخير العصور هو عصر المبادئ، أي حينما يكون الأشخاص والأشياء في خدمة المبادئ.

قال الله تعالى :

" **قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24)** " **سورة التوبة.**

والآية تدلّ على أنّه ينبغي أن يكون الأشخاص آباءًا وأبناءًا وإخوانًا وأزواجًا وعشيرةً في خدمة المبادئ، وهي طاعة الله والرّسول، والجهاد في سبيل الله لنصرة دينه.

كما تدلّ على أنّه ينبغي أن تكون الأشياء من أموالٍ، تجارةٍ ومساكن في خدمة المبادئ، من حبّ الله ورسوله والجهاد في سبيل دينه،

وانظروا معي إلى عصر المبادئ:

– ففي خلافة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، جاءه إلى المدينة جَبَلَة بن الأيْهم آخر ملوك الغساسنة يعلن إسلامه، ورحّب به عمر، ولكنّه أثناء الطّواف في الحجّ، كان بدويٌّ من فزارة قد داس إزار الملك الغسّاني، فيغضب هذا الملك ويلتفت إلى البدويّ، فيهشّم أنفه، فيشكوه الفزاري إلى عمر رضي الله عنه، ويستدعي عمر الملك إلى مجلسه فيدور هذا الحوار، يقول عمر رضي الله عنه لجبلة: (**يا ابن أيهم جاءني هذا الصّباح مشهدٌ يبعث في النّفس، بدويٌّ من فزارة بدماءٍ تتظلّم، وبجراحٍ تتكلّم، مقلةٌ غارت، وأنفٌ قد تهشّم، فسألناه، فألقى فادح الوِزر عليك، بيديك، أصحيحٌ ما ادّعى هذا الفزاري الجريح؟**).

قال جبلة: (**لست من ينكر أو يكتم شيئًا، أنا أدّبت الفتى، أدركت حقّي بِيَدِي**).

يجيبه عمر: (**أيّ حقٍّ يا ابن أيهم؟، عند غيري يُقهر المستضعف العافي ويُظلم، عند غيري جبهةٌ بالإثم بالباطل تلطم،** (معناها دع عنك) **نزوات الجاهليّة ورياح العنجهيّة قد دفنّاها، وأقمنا فوقها صرحًا جديدًا، وتساوى النّاس أحرارًا وعبيدًا، اِرْضِ الفتى، لا بدّ من ارضائه، ما زال ظفرك عالقًا بدمائه، أو يهشّمنّ الآن أنفك، وتنال ما فعلته كفّك**).

قال: (**كيف ذاك؟، وهو سوقةٌ وأنا عرشٌ وتاجٌ، ما مشى في خلدي أنّني عندك أقوى وأعزّ، أنا مرتدٌّ إذا أكرهتني**).

زمن المبادئ يتساوى فيه مَلِكٌ مع رجلٍ من العامّة، ويقتصّ من الملك لأنّه ظلم وتعدّى على رجلٍ من العامّة.

في تاريخ البشريّة وفي أحيانٍ كثيرةٍ جُعِلَت المبادئ والأشياء في خدمة الأشخاص:

- عصر عبد النّاصر كانت المبادئ والأشياء في خدمته.

- عصر القذّافي كانت المبادئ والأشياء في خدمته.

القائد المُلهم وهو يستسلم لليهود ويخون الأمّة، وهم يصفّقون له.

القائد المُلهم، وهو يقول في قوله تعالى:

" **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1)** " **سورة الإخلاص.**

احذفوا " **قُلْ** "، وقولوا " **اللهُ أَحَدٌ** " لا يريد الإعتراف برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، رجلٌ مُصَابٌ بالنّرجسيّة، لا يرى إلاّ نفسه.

يطلع علينا بورقيبة الّذي أذلّه الله تعالى، فيقول للنّاس افطروا رمضان حتّى يزدهر الإقتصاد.

وترى النّاس يصفّقون للقائد المُلهم على قارعة الطّريق خشيةً من البوليس.

تلك هي عصور المبادئ والأشياء من أموالٍ وقوّةٍ في خدمة الأشخاص، وهي شرّ العصور.

النّاس في التّاريخ خافوا الأقوياء المستبدّين (هتلر، ماو)، ودانوا لهم خوفًا منهم، وأطاعوهم رهبةً من بطشهم، ولكنّ النّاس في التّاريخ أحبّوا الأنبياء وأتباعهم.

الأقوياء ملكوا الرّقاب بظلم السّلطان وجدوته، والأنبياء ملكوا القلوب بسلطان الحقّ وأنواره.

وقد ينزل النّاس إلى الحضيض، فيعيشوا عصر الأشياء.

يزِنون النّاس بالأموال، بالرّصيد في البنك، يزنون النّاس بسيّاراتهم، بفيلاّتهم، بمناصبهم، لا بالمبادئ الّتي يحملونها، والأخلاق الّتي يتّصفون بها، وهو عصر المبادئ والأشخاص في خدمة الأشياء.

رجلٌ يخطب امرأةً، يسأله أبوها: (**عندك بيتٌ واسعٌ، ما شاء الله، عندك مركبةٌ فارهةٌ، ما شاء الله، عندك مصنعٌ، ما شاء الله، أُزَوِّجُكَ ابنتي**).

قيمة الشّخص برصيده، بسيّارته، بلباسه، أي المبادئ والأشخاص في خدمة الأشياء، وهذه الطّامّة الكبرى.

بعد مدّةٍ تشكو ابنته من هذا الزّوج، الّذي لا يدخل البيت إلاّ مخمورًا، يُشبعها ضربًا، وبعد أشهرٍ معدودةٍ، رجعت إلى بيت أبيها مذلولةً مُهانةً، ما سأله عن أخلاقه، عن دينه، عن صَلاته.

كان أبو طلحة رضي الله عنه أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحبّ أمواله إليه بيرُحَاء، وكانت مستقبلةً المسجد، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيبٌ، قال أنس رضي الله عنه:

{ **فلمّا نزلت هذه الآية:**

" **لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92)** " **سورة آل عمران .**

قام أبو طلحة إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: (يا رسول الله!، إن الله تعالى أنزل عليك:

" **لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ . . . (92)** " **سورة آل عمران،**

وإن أحبّ مالي إليّ بِيرُحَاء، وإنّها صدقةٌ لله تعالى، أرجو بِرَّهَا وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله).

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (بَخٍّ!، ذلك مالٌ رابحٌ!، ذلك مالٌ رابحٌ!، وقد سمعت ما قلت، وإنّي أراكها أن تجعلها في الأقربين).

فقال أبو طلحة: (أفعل يا رسول الله).

فقسّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمّه } متّفقٌ عليه.

أخرج البزّار وأبو يعلى وابن حجرٍ في الإصابة، قال العيثمي رواه أحمد والطّبراني ورجالهما رجال الصّحيح، أنّه لّما نزل قوله تعالى في سورة البقرة:

" مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245) " سورة البقرة.

قال أبو الدّحداح: (**يا رسول الله!، إنّ الله تعالى يريد مِنّا القرض؟**).

قال: (**نعم يا أبا الدّحداح**).

قال: (**أرني يدك**).

فناوله، فقال: (**فإنّي أقرضت الله حائطًا فيه ستّمائة نخلةٍ**).

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (**إذًا يجزيك الله الجنّة**).

فانطلق أبو الدّحداح، حتّى جاء أمّ الدّحداح وهي مع صبيانها في الحديقة، تدور تحت النّخل، فأنشد يقول:

هداك ربّي سبل الرّشاد ثمّ إلى سبل الخير والسّداد

يبني من الحــــائط بالوداد فقد مضى قرضًا إلى التّناد

اقرضه الله على اعتمادي بالطّوع لا منًّا ولا ارتداد

إلاّ رجاء الضّعــــف في المعـــاد فارتحلي بالنّفس والأولاد والبرّ

لا شكّ فخير زادٍ قدّمه المرء إلى المعاد

أبشري يا أمّ الدّحداح، قد أقرضتها لله تعالى.

فقالت أمّ الدّحداح: (**رَبِحَ بَيْعك، بارك الله لك فيما اشتريت**)، ثمّ أقبلت أمّ الدّحداح على صبيانها، تخرج من أفواههم التّمر وتنفض ما في أكمامهم، وتقول: (**قد أقرضناه الله**)، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلم: (**كم من عذقٍ رداحٍ، ودارٍ فيّاحٍ، لأبي الدّحداح في الجنّة**).

هذا عصر الأشخاص والأشياء في خدمة المبادئ.

ولمّا كانت غزوة تبوك، أراد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن يخرج إليها، وقد كانوا في شدّة، سنة قحطٍ، جدبةٍ وحرٍّ شديدٍ، وعُسرٍ من الزّاد والمال، فحضّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم النّاس على الصّدقات، فجاء عمر بنصف ماله، وجاء أبو بكرٍ بماله كلّه، فقال له النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (**هل أبقيت لأهلك شيئًا؟**)، قال: (**أبقيت لهم الله ورسوله**)، وجهّز عثمان بن عفّان رضي الله عنه ثلث الجيش، وجاء رضي الله عنه بألف دينارٍ ذهبيٍّ (مقدار مليارين)، فصبّها في حجر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فجعل النّبيّ يقلّبها ويقول: (**ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم، ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم**).

جيل الأشخاص والأموال في خدمة المبادئ.

كتب عديّ بن أرطأة أحد ولاة عمر بن عبد العزيز كتابًا جاء فيه: (**أمّا بعد، فإنّ النّاس قد كثروا في الإسلام، وخِفْتُ أن يقلّ الخراج**)، فردّ عليه عمر رضي الله عنه: (**فَهِمْتُ كتابك، والله لَوَدِدْتُ أنّ النّاس كلّهم أسلموا، حتّى نكون أنا وأنت حرّاثين، نأكل من كَسْبِ أيدينا**).

الأموال والمناصب والأشياء في خدمة المبادئ.

تولّى عمر بن عبد العزيز الخلافة سنة 99هـــ وتوفّي الحجّاج سنة 95هـــ. حينما استلم عمر بن عبد العزيز الخلافة، بلغه أنّه هناك من ولاته من يستنّ بسنن الحجّاج، فكتب إلى عديٍّ بن أرطأة أحد ولاته قائلا: (**أمّا بعد، بلغني أنّك تستن بسنن الحجّاج، فلا تستنّ بسنته، فإنّه ذلك أَضْيَع، وكم أكره أن أتأسّى به، أنهاك عن أمورٍ كان الحجّاج بن يوسف يفعلها، وأنهاك عن اقتدائك به، فإنّ الحجّاج كان بلاءًا، وافق خطيئة قومٍ بأعمالهم، أنهاك عن فعله في الصّلاة، فإنّه كان يؤخّرها تأخيرًا لا يحلّ له، وأنهاك عن فعله في الزّكاة، فإنّه كان يأخذها في غير حقّها ثمّ يسيء مواقعها، فاجتنب ذلك منه، واحذر العمل به، فإنّ الله عزّ وجلّ قد أراح منه، وطهّر العباد والبلاد من شرّه، والسّلام**).

أحد الولاة قال له: (**مدينتي خربت، أقطع لنا مالاً نرمّمها**).

فقال له: (**حصِّنها بالعدل، ونقِّ طرفيْها من الظّلم**).

هذا عصر المبادئ وليس عصر الأشخاص ولا عصر الأشياء، عصر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنّه هو الغفور الرّحيم.

الخطبة الثّانية:

الحمد لله حمدًا كثيرًا مباركًا، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، أحمده على نعمه، وأشكره على فضله وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله،

معاشر الإخوة الكرام،

جميلٌ أن تقف على الدّاء، وأجمل من ذلك أن تصف الدّواء لذلك الدّاء.

فما هو السّبيل للرّجوع بالأمّة إلى عصر المبادئ، عصر يكون فيه الأشخاص والأشياء في خدمة المبادئ، في خدمة الحقّ، في خدمة الوحي الرّبّانيّ.

ولنا بشارةٌ من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بِعَوْدَةِ عصر المبادئ، عصر النّبوّة في آخر الزّمان.

ثبت في مسند الإمام أحمد، والحديث صحّحه الألباني في سلسلته، عن الغماء بن بشير قال: { **كنّا جلوسٌ في المسجد، فجاء ثعلبة فقال:** (**يا بشير!، أتحفظ حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الأمواء؟**)، **فقال حذيفة:** (**أنا أحفظ خطبته**)، **فقال حذيفة:** (**قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:**

(**تكون النّبوّة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثمّ يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثمّ تكون ملكًا عاضًّا فيكون ما شاء الله أن يكون، ثمّ يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثمّ تكون ملكًا جبريًّا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثمّ يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثمّ تكون خلافةً على منهج النّبوّة**) }.

ولكن لله سننًا في التّغيير، ومن سننه أنّ لحصول التّغيير لا بدّ من جهدٍ كبيرٍ، قال تعالى:

" **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)** " **سورة العنكبوت.**

هناك مبادرةٌ بالتّبليغ، هناك عبادةٌ بالدّعوة إلى الله تعالى.

واعلموا أنّ مِداد العلماء تساوي دماء الشّهداء، كما أنّ نصائح الآباء تعدل رصاصات المجاهدين، تبليغ الدّعاة يساوي تضحيّات الرّجال، الشّهداء يحفظون البلاد والمبادئ، والعلماء يؤصّلون ويرسّخون المبادئ للإستمرار، وأموال الأغنياء تساوي مرابطة المجاهدين، و لذلك قال تعالى:

" **فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52)** " **سورة الفرقان.**

هذه عبادة العصر ترسيخ المبادئ في المجتمع، أي وجاهدهم بالقرآن الكريم جهادًا كبيرًا.

أن تحصّن الشّباب والشّابات بمدارس إسلاميّةٍ، بمجلّةٍ إسلاميّة، بمرافق إسلاميّةٍ، بمنتجعٍ للصّغار، يلعب الصّغار فيه وترسخ فيهم المبادئ، مبادئ حسن الخلق والحياء، والأدب والصّلاة حتّى لا يفسدون.

اللّهمّ أهدِنا فيمن هديْت وعافِنا فيمن عافيْت وقِنا شرّ ما قضيْت،
اللّهمّ لا تَدَعْ لنا في مَقامِنا هذا ذنبًا إلاّ غفرته، ولا دَيْـنــًا إلاّ قضيْته، ولا مريضًا إلاّ شفيْته، ولا حاجةً من حوائج الدّنيا أو الآخرة لك فيها رضًا ولنا فيها صلاحاً إلاّ قَضيْتها لنا ويَسَّرتَها لنا، يا أرحم الرّاحمين،
اللّهم إنّا نسألك فِعل الخَيْرات، وتَرْك المنكرات، وحُبّ المساكين، وإذا أردت بِقَوْمٍ فِتنةً فتَوَفّنا غير فاتنين ولامفتونين،
اللّهمّ إنّا نسألك حُبَّك وحبّ من أحبّك، وحبّ كلّ عملٍ يُقرِّبنا إلى حبّك،
اللّهمّ اجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير أيّامنا يوم لِقاك،
اللّهمّ لا تأخذنا على حين غِرّةٍ، ولا على حين غفلةٍ،
اللّهمّ إنّك عفوٌّ تحبّ العفو فاعف عنّا، اللّهمّ إنّك عفوّ تحبّ العفو فاعف عنّا،
اللّهمّ انصر الإسلام والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، واخذُل ودمِّر أعداء الدّين في مشارق الأرض ومغاربها،
اللّهمّ انصر المظلومين في سوريّة وفرّج كربتهم، اللّهمّ انصر المظلومين في سوريّة وفرّج كربتهم،
إنّك على كلّ شيءٍ قديرٌ، وبالإجابة جديرٌ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين،
سبحانك اللّهمّ وبحمدك، أشهد أن لا إلــٰه إلاّ أنت، نستغفرك ونتوب إليك.